Al Hayat 20 Mai 90

اوروبا ليست للاصطياف

غسان سلامة *

■ غداً عندما تصل الى لندن افواج المصطافين العرب، وتمتلىء مطاعم ماربيا بمصطافين آخرين، حبذا لو توقف الزوار العرب لحظة عن الاستمتاع السهل بالطقس، وبالحدائق العامة، ودور الملاهي، ليتذكروا انهم يمضون بعض الاسابيع في قارة متقدمة نشطة، قد تصبح في الغد القريب، اقوى المحاور الاقتصادية السياسية في العالم. قد يفكرون آنذاك في ان علاقتهم باوروبا سطحية، استهلاكية في الاجمال، لا تنظر الى العملاق الاقتصادي المتصاعد، الا من خلال شقة في غرب عاصمة انكلترا او من شباك فيلا على شاطىء المتوسط وقد يكتشفون آنذاك ان اوروبا قد تغيرت في العمق، وان صورتهم عنها اصبحت قديمة، بالية، على رغم ترددهم المستمر عليها، او ربما بسبب ذاك التردد نفسه.

اعتقد بعضنا، لاسابيع خلت، ان عملية توحيد المانيا ستعيق عملية بناء اوروبا موحدة. لكن سقوط جدار برلين غير في معنى العملية ولم يوقفها. والقمة الاوروبية الاخيرة في دبلن جاءت بالذات تدفع عملية تشييد اوروبا دفعة قوية الى الامام، على رغم التطورات الهائلة في وسط اوروبا وفي شرقها. ففي دبلن تعهدت بون عدم السيطرة الاقتصادية الاحتكارية على المانيا الشرقية التي ستنفتح لا على غرب المانيا فحسب، بل على اوروبا كلها. وفي دبلن، رضخت بريطانيا لالحاح كل الدول الاوروبية الاخرى على توحيد الجوانب المالية، والعملة. وفي دبلن، استطاعت فرنسا الحصول على قرار، ولو مشروط بتحويل اوروبا سنة ١٩٩٢ الى قوة سياسية موحدة، وليس فقط اقتصادية. وتاكيدا لهذا المنحى، تجاوز القادة الاوروبيون حسابات الاقتصاد والمال وبحثوا في مواضيع دبلوماسية وسياسية وامنية كانت بالامس القريب حكراً على كل دولة بمفردها، ونموذجاً لسيادة كل دولة ازاء الدول الاخرى.

هل يحق لنا، نحن معشر العرب، والحال كهذه، ان نقترب من اوروبا، من خلال منتجعاتها السياحية، واماكن لهوها؟ هل يحق لنا ان نرى اوروبا تقوم، موحدة، قوية الساعد، وجارة كبرى متقدمة في محيطنا الجغرافي المباشر بينما اعيننا ما زالت مشرئبة نحو واشنطن وموسكو، وكلاهما الى تضاؤل في النفوذ؟ هل يحق لنا ان نبقى اسرى الماضي الاستعماري وترسباته المختلفة، بينما تجاوزت اوروبا نفسها تاريخها الاستعماري، بل تاريخها كمجموعة دول متنافسة ومتحاربة على اشلائنا؟ هل يحق لنا النظر الى اوروبا كمجموعة من الدول، بينما هي اصبحت جماعة، وشتان بين المجموعة والجماعة؟

ام أن الاوان قد حان لتعامل سياسي ناضج مع القارة الجارة، القارة القوية، لتعامل يتجاوز استهلاك العطور وشراء الشقق، والتعرف السطحي الى بعض مظاهر الثقافة والفنون؟ وان كان الامر كذلك، فلن يتم لنا من خلال ما شهدناه خلال عقد ونصف عقد من الحوارات بين شاطىء المتوسط خصوصاً الجلسة الاخيرة التي انعقدت اخيراً في باريس. فالطابع الاحتفالي، الرسمي جداً، يغلب على هذه اللقاءات، كان بعض الوزراء العرب كان مغتبطاً للندية التي عامله بها زملاؤه الاوروبيون لدرجة أنه نسي معها ان يطالبهم بشيء. لكن هذا البعض قد لا يدري ان تلك الندية، والمساواة الرسمية، تخفي لا مساواة هائلة بين الطرفين.

فالاندماج الاقتصادي المتسارع بين الدول الاوروبية لا يقابله اندماج مماثل، ولا حتى مشابه، في الجانب العربي. ولقد تكرمت الامانة العامة للجامعة العربية باهدائنا اخيراً كتاباً واسع الصفحات، يفوق الخمسمئة صفحة، يضم بين دفتيه «مجموعة المعاهدات والاتفاقات» المعقودة بين الدول العربية. ومن ينكب على مطالعة هذا الكتاب سيجد ان الاتفاقات الاقتصادية بين الدول العربية هي، في عدد من النقاط اكثر تقدماً من الاتفاقات الاوروبية، في مجال التبادل التجاري، وحرية العمل، وانتقال الرساميل مثلا. لكن من يمعن النظر سيرى ان الاتفاقات العربية ليست موقعة احياناً، وان وقعت لم يصادق عليها، وان تمت المصادقة عليها، فهي ليست نافذة، وان كانت نافذة فهي ليست منفذة.

والعلاقة بين اوروبا والدول العربية محكومة بقرارات اوروبية تقضي بتنويع العلاقات مع الدول العربية، وفقا لمصالح اوروبا. فدول المغرب والشرق المتوسطي محكومة بسياسة تسمى «متوسطية» وهي قائمة على مجموعة من القرارات الاوروبية غير النافذة في دول الخليج العربية مثلا.

والمنطقتان تشهدان نمواً ديموغرافياً متضارباً تماماً. فاوروبا تميل نحو ثبات سكانها على ارقام مستمرة بينما تشهد المنطقة العربية انفجاراً سكانياً واسعا.

فمصر وتركيا هما حاليا اكبر سكاناً من فرنسا، والمغرب والجزائر قد يتفوقان على فرنسا او ايطاليا بعدد السكان خلال مهلة قد لا تتجاوز عشرين عاماً. ويعني هذا ان ضغطاً سكانياً متزايداً من جنوب المتوسط على شماله هو قانون اللعبة في السنوات المقبلة، وان اعداد المغاربة والجزائريين والمصريين قد تاتي كما «رجال الزوارق» الهاربين من فيتنام في عتمة الليل. وقد شهدت الشواطىء الفرنسية والاسبانية والايطالية حداً وتشديداً على حركة الانتقال البحري، كما شهدت مدن ايطاليا اخيراً حالات متزايدة من العنف العنصري ضد عمال عرب دخلوا ايطاليا خلسة.

واوروبا طرف له وزنه المتزايد في مسار الصراع العربي - الاسرائيلي، وهذا ما اصبحت واشنطن نفسها تعترف به علناً. ومرد ذلك لا العلاقة المعروفة بين باريس او لندن ومنطقتنا فحسب، بل قيام السوق المشتركة نفسها. فمنذ خريف ١٩٨٨ قررت السوق البدء باستيراد منتجات الضفة الغربية وقطاع غزة دون المرور بالشركات الاسرائيلية. ومفوض السوق الغى زيارة الى اسرائيل بسبب انتهاكات حقوق الانسان الفلسطيني منذ شهرين. والسوق ترفض حتى الساعة تعاوناً اسرائيلياً - اوروبياً في مجال الالكترونيات خوفاً من تسرب تكنولوجيا عسكرية اوروبية الى اسرائيل، ناهيك عن كون اوروبا الموحدة قد قررت منذ عقد ان تتعامل مع الصراع نفسه بصورة موحدة، كما بدا ذلك في بيان البندقية (١٩٨٠) او في بيان مدريد (١٩٨٩).

اوروبا (كالاتحاد السوفياتي) منطقة قلقة ازاء سباق التسلح في المنطقة العربية، وبالذات بالنظر الى انتشار الصواريخ البعيدة المدى، والرؤوس النووية والكيماوية. وان كانت موسكو تتأفف من حصول اسرائيل على صواريخ قد تطاول يوماً الاراضي السوفياتية، فالدول الاوروبية اكثر قلقا خصوصا ان صاروخاً او اثنين من هذا النوع اطلقا على الارجح من ليبيا على جزيرة ايطالية غداة قصف الطائرات الاميركية مقر العقيد القذافي. ولا شك في ان الاوروبيين راغبون وقادرون على فرض نوع من الموازاة بين ازالة الصواريخ المتوسطة المدى في اوروبا والحد منها في منطقتنا.

هذه بعض الاسباب التي تدعو الى المعالجة الجديدة، لا الى اللقاءات الاحتفالية او العلاقة السياحية. اضف الى ذلك ان اوروبا على تفاوض قاس ودقيق مع مجلس التعاون الخليجي في موضوع شديد الحساسية وهو تصدير المنتجات الصناعية الخليجية الى اوروبا. فمن المعلوم ان السوق فرضت تعريفة جمركية عالية لاستيراد الميثانول ثم البوليتيلين من السعودية. وقريبا ستطبق هذه التعريفة على الالومنيوم ايضاً، علماً بان دول الخليج تنتج منه الان حوالي ٤٠٠ الف طن في السنة، وهو انتاج سيتضاعف مرتين في السنوات الاربع القادمة. وتمس التعريفة العالية تلك ايضاً الانتاج الدوائي الخليجي، والسماد الكيماوي وغيرها. كل هذه المنتجات تصطدم حاليا بمشاريع حماية السوق ازاء المنافسة الخليجية، وتهدد بالتالي امكان تحول مجلس التعاون الى منطقة صناعية راقية. والمفاوضات الجارية حالياً بين مجلس التعاون والسوق الاوروبية تكاد تكون محصورة بالخبراء الاقتصاديين الذين اجتمعوا في غرناطة او الوزراء التقنيين الذين اجتمعوا اخيرا في مسقط. لكن المسألة ليست تقنية فحسب، بل هي ايضاً سياسية وثقافية، وعدم اهتمام الرأي العام الخليجي والعربي بهذا النوع من القضايا صورة عن فهمه البالي لما هي عليه السياسة في عصرنا هذا.

والخليجيون بالذات، قد يكونون ما زالوا متاثرين بحجم قوة الدولتين العظميين في صورة مبالغ فيها كثيراً. وربما عليهم التعود على اخذ اوروبا في صورة اوضح في اعتبارهم. فهناك اليوم حوالي ١٥٠ الف خبير اوروبي يعملون في دول الخليج، بينما نفقات السياحة الخليجية في اوروبا باهظة جداً، مما يضاعف حجم الاموال المنتقلة في صورة احادية من الخليج الى اوروبا. والموجودات المالية الخليجية في الخارج بدات في الفترة الاخيرة تذهب في صورة اوضح نحو اوروبا، حيث هي مقدرة اليوم باكثر من ١٣٠ بليون دولار، ناهيك طبعاً عن حاجة اوروبا الى النفط الخليجي، وحاجة اهل الخليج الى الصناعة الحربية الاوروبية اذا بقيت اسرائيل تسيطر على قرارات الكونغرس الاميركي في هذا المجال. ويعرف الخليجيون ايضا ان نصف السفن الحربية التي توجهت نحو مياه الخليج عندما تهددت حرية الملاحة فيه كانت ترفع اعلاماً اوروبية. ومن الممكن تصور تزايد مستمر في دور اوروبا في تامين الاستقرار في منطقة الخليج.

اما اذا نظرنا شطر المغرب العربي الكبير، فاننا نلمس نوعا آخر، اخطر بكثير، من التلازم غير المتساوي. فالناتج الاقتصادي الاوروبي يفوق ٤٠ مرة الناتج المغاربي كله، بينما عدد سكان دول السوق الاوروبية يفوق عدد السكان المغاربيين ٥ مرات فقط وان مساحة دول المغرب تفوق ٣ مرات تقريبا مساحة دول السوق الاوروبية. وفي المجال الاقتصادي، فان اوروبا اساسية بالنسبة الى المغرب، بينما المغرب العربي هامشي بالنسبة الى اوروبا. فحوالي ٥ في المئة من واردات اوروبا مصدرها دول المغرب و٤ في المئة فقط من صادرات اوروبا تذهب نحو تلك الدول بينما تتجاوز البضائع الاوروبية او البضائع المغاربية الموجهة نحو اوروبا اكثر من ثلثي التبادل الخارجي في دول مثل الجزائر او المغرب او تونس.

هناك اذن ارتباط اقتصادي وثقافي (لغوي) وجغرافي هائل بين دول المغرب ودول السوق، وهو ارتباط قائم على ندية نظرية فقط بين هاتين المنطقتين، فدول السوق لم تعد في حاجة الى اليد العاملة المغاربية كما في السابق، ولا حتى الى استيراد المواد الغذائية منها. والاستثمارات الاوروبية في دول المغرب مهددة بالشح من جراء تحولها نحو اوروبا الشرقية، والمساعدات المالية كذلك. وبينما تتسارع خطوات التوحيد الاوروبي، وما زال اتحاد دول المغرب الغربي من دون مقر او حتى من دون امين عام!.. لهذه الاسباب، يصاب العربي، خصوصا العامل في اوروبا، بالاحباط من الخفة التي يظهرها ابناء بلاده تجاه اوروبا، كانها مقر نزهة واصطياف فحسب. وما هذه الكلمات لتنقيص لذة الهاربين من قيظ بلادنا الصيفي انما هي مناسبة للتذكير بان العلاقة الدولية لم تعد حيث اعتقدنا انها كانت، وان العالم يتغير بسرعة مذهلة بينما نبحث، مرة اخرى، عن مكان جديد، ممتع... للاصطياف.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى